مختصر كتاب

أصول المنهجية العلمية

في القرآن الكريم

سلسلة مختصرات الكتب

مختصر كتاب
أصول المنهجية العلمية
في القرآن الكريم

رزان محمد صقال

المعهد العالمي للفكر الإسلامي
INTERNATIONAL INSTITUTE OF ISLAMIC THOUGHT

© المعهد العالمي للفكر الإسلامي - هرندن - فرجينيا - الولايات المتحدة الأمريكية
الطبعة الأولى ١٤٤٧هـ/ ٢٠٢٥م

مختصر كتاب أصول المنهجية العلمية في القرآن الكريم
تأليف: رزان محمد صقال

موضـــوع الكتـاب:

١- أصول المنهجية	٢- المنهج والمنهجية
٣- عمليات عقلية	٤- تكامل القيم
٥- الاستدلال	٦- المعجزة

ردمك (ISBN) : ٨-٢٤١-٨٩١٩٣-٨-٩٧٩ [النسخة الورقية]
ردمك (ISBN) : ٥-٢٤٢-٨٩١٩٣-٨-٩٧٩ [النسخة الإلكترونية]

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (٢٠٢٣/٨/٤٣٢٣)

جميع الحقوق محفوظة للمعهد العالمي للفكر الإسلامي، ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي مسبق من المعهد.

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

The International Institute of Islamic Thought
P. O. Box: 669, Herndon, VA 20172 - USA
Tel: (1-703) 471 1133, Fax: (1-703) 471 3922
www.iiit.org/ iiit@iiit.org

مكتب الأردن - عمان
ص.ب ٩٤٨٩ الرمز البريدي ١١١٩١
هاتف: ٩٦٢٦٤٦١١٤٢١+ فاكس: ٩٦٢٦٤٦١١٤٢٠+
www.iiitjordan.org

الكتب والدراسات التي يصدرها المعهد لا تعبّر بالضرورة عن رأيه وإنما عن آراء مؤلفيها واجتهاداتهم

المحتويات

الفصل الأول

مدخل مفاهيمي ٥

أولاً: المنهج والمنهجية وأهم المفاهيم المرتبطة بها ٥

ثانياً: مفهوم المنهج في القرآن الكريم وأهم خصائصه ٧

الفصل الثاني

أصول التفكير المنهجي في القرآن الكريم ٩

أولاً: العقل وتحرير منـزلته من الوحي ٩

ثانياً: الحواس وارتباطها بالعمليات العقلية ١٤

الفصل الثالث

مبادئ السلوك المنهجي في القرآن الكريم ١٩

أولاً: التربية المنهجية على القيام للحق ١٩

ثانياً: السلامة من اتباع الهوى وتكامل القيم في المنهجية القرآنية ٢١

الفصل الرابع

أهمية الدليل ومنهج الاستدلال في القرآن الكريم ٢٥

أولاً: أهمية الدليل في القرآن الكريم ٢٥

ثانياً: منهج الاستدلال في القرآن الكريم ٢٧

ثالثاً: دليل المعجزة ومكانتها من المنهجية القرآنية ٣٠

الفصل الأول

مدخل مفاهيمي

أولاً: المنهج والمنهجية وأهم المفاهيم المرتبطة بها

١- المنهج لغة واصطلاحاً:

يدل المنهج في اللغة على معنى الطريق والصراط، ويرتبط بالوضوح والبيان، والأمن من الضلال. والمنهج بمفهومه العام، يُعبِّر عن كلّ طريقةٍ تؤدي إلى غرضٍ معلومٍ يُرَاد تحصيله، أما معناه في العلوم فهو طائفةٌ من القواعد العامة التي تضبط الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة أو البرهنة عليها. فالمنهج في الاصطلاح العلمي يتعلّق بنسقٍ من القواعد التي تضبط البحث العلمي، وتتم وفق خطةٍ منظمةٍ لعدة عمليات ذهنية أو حسيّة، تندرج ضمن رؤيةٍ معرفيةٍ أو فلسفية، وتمثل جميعها منظومة المنهج الداخلية، مع انتماء المنهج إلى منظومةٍ خارجيةٍ أكبر هي منظومة المنهجية.

٢- مفهوم المنهجية وعلاقته بالمنهج:

المنهجية مصدر يطلق على علم طرق البحث العلمي أو علم المناهج، ذلك أن المناهج التي تختلف باختلاف العلوم، تشترك في جملةٍ من المبادئ الأساسية والقواعد التي تختص المنهجية أو علم المناهج بالكشف عنها، وذلك من خلال التعميم، واستخلاص الخصائص العامة للمناهج المتبعة في مختلف فروع العلم، لتصوغ منها المنهج العقلي العام في البحث عن الحقيقة، والذي يتضمن أصولاً ومسلماتٍ لها دورها في عملية التصحيح المستمرة للعلاقة المتبادلة بين الذات الباحثة وموضوعات البحث المختلفة، وذلك منذ بدء البحث حتى بلوغ غاية الحقيقة والعلم. فالمنهجية أعمّ وأشمل من المنهج، وتمثل علم دراسة طرائق البحث وبنائها وتشغيلها وتفعيلها، فهي منهج المناهج بهذا الاعتبار، في حين أن المنهج هو قواعد وأدوات وإجراءات ووسائل هي من مكونات المنهجية.

٣- العلم والمعرفة والعلاقة بينهما:

يرتبط المنهج بمفاهيم مهمّة، في مقدمتها العلم الذي يمثل غاية المنهج والمجال الذي يتم تفعيله فيه، ثم مفهوم المعرفة. فالعلم لغةً إدراك الشيء بحقيقته، أما المعرفة فهي إدراك الشيء بتفكرٍ وتدبرٍ لأثره. والخلاف قائم في تحديد العلاقة بين المفهومين والتمييز بينهما، لكن الملاحظ أن كلاً من العلم والمعرفة يدل على معنى الإدراك، ولما كانت أجهزة الإدراك ترتبط بأمرين: الموضوع (مادة البحث)، والمنهج (الخطوات الذهنية التي يتبعها الباحث بقصد تحصيل المعرفة)، فالمعرفة موضوعٌ ومنهج، وهي أعمّ من العلم، تتضمن معارف علمية وأخرى غير علمية، وتتقارب المعرفة العلمية من حيث المفهوم مع العلم، الذي يمثل المنهج أساساً فيه. فالعلم يتميز بمنهجه المتفرد، وهو في حقيقته طريقةُ تفكيرٍ ومنهجُ بحثٍ أكثر من كونه مجموعة من المعارف والقوانين، ثم إنّ مفهومه لا ينحصر في العلوم الطبيعية القائمة على التجربة الحسية والمعتمدة على المنهج التجريبي وحده، وإنما يعم إدراك الأمور على ما هي عليه بدليل، فيدخل في موضوعاته كل ما يمكن أن يوصل إلى يقينٍ بشأنه وفق المنهج الملائم له.

٤- نظرية المعرفة والإبستمولوجيا:

تشير الدراسات إلى مفهومي نظرية المعرفة والإبستمولوجيا، نظراً لارتباطهما بالمنهجية، وقد نشأت "نظرية المعرفة" بوصفها مبحثاً فلسفياً، يتناول إمكانية المعرفة، وطبيعتها، ومصدرها وقيمتها وحدودها، والطرق الموصلة إليها. أما الإبستمولوجيا (علم العلوم) فهي تتناول بالنقد مبادئ العلوم المختلفة، وفروضها ونتائجها، كما تهدف إلى بيان أصلها المنطقي وقيمتها الموضوعية. والمنهجية أو الميثودولوجيا على ارتباطٍ وثيقٍ بالإبستمولوجيا، ذلك أن الدراسة النقدية لمبادئ العلوم وفروضها يتطلب أولاً فحص المنهاج الذي أُتّبع للوصول إليها، والذي هو من اختصاص الميثودولوجيا بالذات.

ثانياً: مفهوم المنهج في القرآن الكريم وأهم خصائصه

١- مفهوم المنهج في القرآن الكريم وأهم الألفاظ المرتبطة به:

ورد جذر (نهج) في القرآن الكريم مرة واحدة، في قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨]، وهو لا يخرج عن المعنى اللغوي الدال على الطريق البيّن الواضح، ويُلحظ في الآية عطف المنهاج على الشرعة، ومما قيل في التمييز بينهما فالشرعة إشارة إلى الدين، والمنهاج إشارة إلى الدليل الذي يتوصل إلى معرفته.

وإلى جانب ارتباط المنهج بلفظ الشرعة الهام في القرآن، فهو يرتبط بجملة من المفاهيم القرآنية الأساسية، كالطريق، والسبيل، والصراط، والتي تشكّل حقلاً دلالياً مركزياً واحداً، تشترك مفرداته في المعنى اللغوي الدال على الطريق الواضح الذي فيه سهولة، وتُوظّف جميعاً في دلالة اصطلاحية خاصة بالقرآن ورسالته، كما في سبيل الله، والصراط المستقيم، والمنهاج المقارن للشريعة.

وهذا الحقل الدلالي يرتبط كذلك بمفاهيم مركزية في القرآن الكريم، من أهمها الهداية مثلاً، التي تشترك مع المنهج في المستوى الأساس القائم على طريقٍ موصلٍ إلى الغاية، بحيث يكون المنهج هو الطريق، بينما الهداية هي سلوكه أو الدلالة على سلوكه.

ومن المفاهيم المركزية كذلك العلم الذي ورد في القرآن أكثر من (٨٥٠) موضعاً، ويقترن بالمنهج والصراط المستقيم في العديد من المواضع، كما يقاربه لفظ المعرفة، ويمكن التمييز بينهما في الاستعمال القرآني بملاحظة أن لفظ العلم ورد في الدلالة على كلٍّ من العلم الإنساني وعلم الله ﷻ، أما لفظ المعرفة فقد اقتصر في الدلالة على العلم الإنساني، وهو يأتي في أغلب المواضع مقروناً بعلامته وموضوعه الحسي، وبوصفه إدراكاً مكتسباً بدليل أو علامات عليه، بينما يعم العلم ما يكون ضرورياً أو مكتسباً.

وعليه، فإن لفظ العلم أعم من المعرفة، وذلك بالنظر إلى الجهة أو الاعتبار الذي اقتضى ذلك، وهو شمول العلم لكل من العلم الإلهي والعلم الإنساني، وشمول

العلم الإنساني لكل من الضروري والمكتسب. أما في إطار البحث العلمي العام فالعلم أخص من المعرفة، وذلك لاعتبار المنهج الذي هو سبيل العلم وأساس الوصول إليه، بينما تعم المعرفة كلاً من المعرفة العلمية وغير العلمية.

٢- خصائص المنهج القرآني:

يتميز المنهج القرآني بجملة من الخصائص، من أهمها أنه منهجٌ ربانيّ المصدر، يجمع بين الثبات في الأسس والحركة في التطبيق، وهو ليس خاصاً بمرحلةٍ أو بيئةٍ معينةٍ، وإنما هو منهجٌ متجددٌ يُعطي في كل زمان ومكان ما ينسجم مع الفكر الإنساني السليم. والمنهج القرآني كذلك منهجٌ متوازنٌ دقيقٌ، يسعى إلى الإنهاج الحضاري، بما يشمل إنهاج التفكير والبحث والعمل، ومن أهدافه الأساس الهداية والوصول إلى الحقيقة.

والملاحظ أن هذه الخصائص، إنما يوصف بها المنهج القرآني باعتبار أنّ القرآن الكريم منـزّلٌ من عند الله ﷻ، وبذلك فإن كونه ربانيّ المصدر هو الصفة الأساس التي تنبني عليها سائر الخصائص الأخر، مع الإشارة إلى أنّ ربانية مصدره لا تُلغي دور الإنسان في التفاعل مع القرآن لاستنباطه، والسعي لصياغته وتجديده والعمل به. فهذا المنهج الكامل الشامل المتوازن، يقع على الإنسان الدور الأهم لكشفه وفهمه والعمل بمقتضاه، وفق الاجتهاد البشري؛ فهناك تفاعل بين إطلاقية مصدره ونسبية الجهد البشري في الاجتهاد للوصول إليه، وبين كمال وشمول أصوله وفهمها والعمل بها بحسب حاجة الإنسان في كل عصر ومكان.

الفصل الثاني

أصول التفكير المنهجي في القرآن الكريم

التفكير هو نشاط العقل وإعماله للوصول إلى غاياته، ومن أنواعه "التفكير العلمي" وهو طريقةٌ في النظر تعتمد على البرهان المستند إلى التجربة أو الدليل، وتقوم على التجريد والتعميم، وتستند إلى قواعد المنطق، وتتسم بالمنهجية، و"التفكير المنهجي" يقاربه من حيث المفهوم؛ إذ يقترن فيه التفكير بالمنهج، ويمكن أن يُعرّف بأنه: نشاطٌ عقليٌ يتبع قواعد واضحة ومحددة للوصول إلى الحقائق.

والتفكير المنهجي يقتضي قدرة الإنسان على التفكير الواضح والمنظم، إضافة إلى ترتيب المسائل وتقييم الاحتمالات، وامتلاك التصور الكامل اللازم للتفسير والتعليل، والأدوات الكافية للنقد والتوجيه، وكل هذا هو مقتضى التفكير الناهج، وأصوله ترتكز على جملة من المفاهيم القرآنية المرتبطة بإعمال كل من العقل والحواس كما سيأتي.

أولاً: العقل وتحرير منـزلته من الوحي

١- العقل لغة واصطلاحاً:

يدل لفظ العقل في اللغة على الحبس أو الإمساك، ويرد في تعريفه اصطلاحاً العديد من الأقوال، وتدور حول ثلاثة معانٍ أساسية: الملكة التي تدرك بها العلوم، ونفس العلم، وبعض العلوم الضرورية. والمراد من العقل مفهومه الذي يتناسب مع الإطار المنهجي، فلا يُقصد به العلم؛ لأنه غاية المنهج وهدفه، كما لا يُقصد به العلوم الضرورية أو بعضها؛ لأنها مصدرٌ معرفيٌ، وإنما يقصد بالعقل في السياق المنهجي الملكة التي يتهيأ بها الإنسان لقبول العلوم، ووظيفته الذهنية المتمثلة في الفهم والإدراك.

٢- العقل في القرآن الكريم:

ورد جذر (عقل) في القرآن الكريم (٤٩) مرة، (٣٢) منها في سور مكية والباقي في سور مدنية، وهذا يتضمن إشارةً أولى إلى أنّ تقرير أيّة دعوةٍ جديدةٍ، كما كان حال الدعوة الإسلامية في مكة، إنما يستند أساساً إلى خطاب العقل وحثه على التفكر والنظر. ثم إنّ جذر العقل ورد في القرآن بصيغة الفعل لا المصدر، بالفعل الماضي مرة واحدة، ومضارعاً في بقية المواضع، ويشير ذلك إلى أن المنهج القرآني يؤسّس لاعتبار العقل وظيفةً إدراكيةً ذهنيةً، ينبغي تفعليها الدائم والمتجدد من كل إنسان، وهي مقصودة لذاتها أيّا كان موضوع التعقل ومفعوله. وقد وُظّف فعل العقل في العديد من التراكيب اللغوية، كالفعل المسبوق بلعلّ (لعلكم تعقلون) أو بعد الاستفهام المنفي (أفلا تعقلون) أو مقترناً بذكر "الآية" أو "الآيات" (إن في ذلك لآية/ لآيات لقوم يعقلون)، وهي بمجموعها حثٌّ وبعثٌ للمخاطبين على استعمال عقولهم في تأمل الآيات البيّنات، سواء كانت آيات قرآنية تُعطي المنهج أو آيات كونية تؤيد صدق الآيات المنهجية، وصيغة (لعلّ) تفيد رجاء أن يرشدهم إعمال عقولهم والتفكر فيها، إلى قبول ما يُدعَون إليه، وتعرّفه حقّ معرفته. أما السياقات التي يرد فيها نفي تعقّلهم للقضايا التي لا تختلف فيها المدارك والعقول، فهي تتضمن الإشارة إلى أنّ المشكلة ليست مشكلة علمٍ فيصار إلى توجيههم إلى الأخذ بأسبابه، بل مشكلة تجميد العقل، وعدم إعماله في التفكير والنظر.

ويرتبط ذكر العقل في بعض السياقات الكلية بالدعوة إلى السبيل السوي، والصراط المستقيم، كما في أواخر سورة الأنعام، في قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام:١٥١]، وقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣]، وبذلك تتضافر الآيات التي ورد فيها فعل العقل، بتراكيبها وسياقاتها وموضوعاتها، للتأكيد والحث على إعماله بالنظر والفكر، للوصول إلى التسليم بالحق وقضايا القرآن الكريم.

٣- الألفاظ القرآنية المرتبطة بالعقل ودلالاتها:

يقارب لفظ العقل في القرآن الكريم العديد من الألفاظ، من أهمها الحِجر، والنهى، والأحلام، واللبّ، والتي استعملت بالمصدر، للدلالة على أنها لا تركّز على الوظيفة الإدراكية التي يتميز بها العقل، بقدر ما تؤكّد على أثره المتمثل في منع الإنسان من الوقوع في القبيح. ففي (الحجر) معنى المنع، وقيل للعقل حِجْر؛ لأنه يمنع الإنسان ممّا تدعوه إليه نفسه، ولفظ (النهى) الذي ورد مرتين من النُّهيَةُ: وهو العقل الذي ينهى عن القبائح، ولفظ (الأحلام) الوارد مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَذَا﴾ [الطور:٣٢] ترجع دلالته في الأصل إلى ضبط النّفس عن هيجان الغضب، وإنما فُسّر بالعقل لكونه من مسبّباته. أما لفظ (اللبّ) فيرد في (١٦) موضعاً، بصيغة واحدة هي (أولي الألباب)، وعند إطلاقه فإنه يشير إلى العقل الخالص من شوائب النفس والهوى، والذي ينفع صاحبه بخلوصه مما هو كالقشر بالنسبة للُبّ، وتشتمل الآيات التي خاطبت أولي الألباب على قضايا يحتاج إدراكها إلى تفكرٍ وتدبرٍ عميق، ويرد فيها الحثّ على الالتزام بالتقوى كما في قوله: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة:١٩٧].

وقد عرّف القرآن الكريم أولي الألباب، بذكر أوصافهم في موضعين: الأول: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران:١٩٠-١٩١] والموضع الثاني: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر:١٧-١٨]؛ بينت الآية اتصافهم بتوحيد الله والعمل بطاعته، إلى جانب استماع أحسن القول فاتباع أرشده وأهداه. فأولو الألباب هم أصحاب العقول الراجحة الكاملة، الذين يدركون عواقب الأمور، وهم قد حازوا الفضل، جمعوا بين الكمال في الوظيفة الإدراكية للعقل، والكمال في أثره السلوكي المتمثل في التزام التقوى والامتناع عن كل قبيح.

وتبقى الإشارة إلى لفظ (القلب) ورد القول بأنه مرادفٌ للعقل ومحلٌ له، بدلالة

بعض الآيات القرآنية كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج:٤٦]، وفي تحرير العلاقة بينهما يمكن القول بأن لكلّ من العقل والقلب دوراً في الوصول إلى العلم والاعتقاد به، فالقلب هو مفيض الدم على الأعضاء الرئيسية وأهمها الدماغ الذي هو عضو العقل، فإذا حصّل الإنسان الإدراك والعلم بالعقل، أفاض به على القلب مرة أخرى، ليصبح عقيدة وقضية مستقرةً فيه، فكأن مبدأ الفهم والعلم ومستقرّه عائد إلى القلب، فسُوّغ إطلاقه على العقل، وذلك من قبيل المجاز المرسل على طريقة العرب في تجوّزها عن الشيء بغيره، من لازمٍ أو سببٍ أو علّةٍ، ونحو ذلك.

٤- العلاقة بين العقل والوحي:

تؤكد الدعوة المتأصلة في القرآن الكريم إلى إعمال العقل أن الإسلام دينٌ لم يفرض عقائده على الناس فرضاً، بل عرضها وناقشها، وطالب بالبحث والتقصّي حولها، حتى يتم التوصل إلى الايمان بها والتسليم بصدقها، فالإنسان يأتي إلى الدنيا دون معرفة مسبقة، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨]، والموقف المنهجي منها بالنسبة للإنسان أن يقوم بتفعيل أدوات الإدراك والعقل، لاختبار أحوال الرسول ومقومات صدقه وصولاً إلى الإيمان به. ولعل قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم﴾ [سبأ:٤٦] يلخص هذا الموقف المنهجي، فالإنسان مدعوٌّ بشكل صريح إلى التفكر في حال الرسول، منفرداً أو مع غيره من العقلاء، لتمحيص دعواه وتحديد الموقف منها. ولذلك قرر العلماء أن أوّل **واجبٍ** على الإنسان هو النظر المؤدي إلى معرفة الله، وإنما وقع الخلاف بين المتقدمين في طريق ثبوت وجوب النظر، وهو خلافٌ يرجع إلى التفاوت الحاصل بينهم في تقييم دور العقل قبل ورود الشرع وإمكان استقلاله في الإدراك أو ما يعرف بمسألة الحُسن والقبح في الأفعال، فيرى المعتزلة أنّ الحسن ما حسّنه العقل، والقبيح ما قبّحه، ويرى الأشاعرة أنّ الحُسن

ما حسّنه الشرع بالثناء على فاعله، والقبيح ما نهى عنه وتوعد بالعقاب على فعله. ويمكن تحرير الخلاف بينهما بالقول أنّ الفعل مستلزمٌ للكمال والنقصان واستلزامه عقلي، والكمال والنقصان يستلزم الملاءمة والمنافرة واستلزامه عقلي كذلك، ثم إنّ المدح والذم والثواب والعقاب يترتب على النقصان والكمال العقلي كترتّب المسببات على أسبابها، ولكنه مشروط بورود السمع (الشرع) لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء:١٥]، فإثبات الحسن والقبح عقلاً لا يستلزم التعذيب، وإنما يستلزمه مخالفة المرسلين.

وعليه، فإن ثبوت التحسين والتقبيح العقليين يقرر وجود قدرٍ مشتركٍ من الاتفاق بين العقول على إدراك ما في الأفعال من الحسن والقبح، وهذا القدر يصلح به خطاب الناس بالوحي، فالإنسان يملك القدرة على محاكمة الأمور، ووصفها بالحسن أو القبح، وإصدار حكم يترتب على ذلك، فإذا ورد الوحي كان هو في ذاته قضية يحاكمها الإنسان، ليتوصل فيها إلى الوصف بصدقها أو كذبها. ومن ثمّ، قبولها أو ردها، وهذه القدرة على المحاكمة، إنما هي مودعة في الإنسان بإرادةٍ مطلقةٍ من الله تعالى، ليحصل بها التكليف -أي الثواب والعقاب- بعد ورود الشرع. فالعلاقة بين العقل والوحي علاقة وجودية، معرفية، منهجية. أما كونها علاقة وجودية فلأنه لا يتصور أن يحقق الوحي هدفه ومراده ابتداءً دون خطاب العقول؛ إذ بدون العقل لا يمكن أن تُدرك حقائق الوحي إدراكاً كاملاً أو تنكشف طبيعتها السماوية أو يُعترف بها، كما أن العلوم الشرعية لا تُدرك ولا تفهم إلا بالعقل.

أما العلاقة المعرفية: فالوحي مصدرٌ معرفيٌ متيقنٌ للرسول أنه من عند الله، يَبْلغه بطريقٍ لا سبيل لغيره للوصول إليه، فالمطلوب من الناس البحث والنظر وصولاً إلى الإيمان به؛ فهو مصدر معرفي للرسول بالاضطرار، وللإنسان بالنظر والاستدلال. وهو يتكامل مع مصادر المعرفة الأخرى المتمثلة في الكون، بالإضافة إلى العقل في بعض أنواع المعارف الضرورية، ويكون دور العقل عندها هو الإدراك واكتساب

المعرفة من هذه المصادر، بالبحث والنظر في الكون "كتاب الله المفتوح"، والقرآن "كتاب الله المقروء".

وأما العلاقة المنهجية: فإن العقل وسيلة موصلة إلى الحق كشفاً وتقديراً، وذلك لا يكون بمطلق الحركة العقلية وحدها، بل بالتزام شروطٍ وقيودٍ منهجية، وسلوك طريق صارم من النظر والفكر، يتصف بالمرحليّة والتدرج والترابط، ويقوم على المقايسة والموازنة، والانتقال من المقدمات إلى النتائج، ومن المعلوم إلى المجهول. والوحي يدعم العقل في هذه المسيرة المنهجية، فيأتي داعياً العقل إلى النظر والفكر، ومشتملاً على الضمانات التي تقيه القصور الكامن في حدود إدراكه، والقصور الذي قد يقع فيه إن استجاب لضغوط الأهواء والنـزعات التي تؤثر فيه، ويضع له المبادئ والأسس التي تضمن استقامته في طريق العلم.

ثانياً: الحواس وارتباطها بالعمليات العقلية

يرد ذكر الحواس في القرآن باعتبار قيمتها المعرفية، وبوصفها أدواتٍ للإدراك، وقد ركّز القرآن على حاستي السمع والبصر، لكونهما أهم آلات الإدراك، وأقوى الحواس تحصيلاً للعلوم، فبهما يكون إدراك أدلة الاعتقاد الحق.

١- السمع في القرآن الكريم:

ورد جذر السمع في القرآن (١٨٥) مرة، بمعنى إدراك الصوت، وبمعنى فهم ما يسمع من الكلام؛ لأنه ثمرته، كما يرد بمعنى قبول ما فهمه والاعتبار به والعمل بموجبه، وهو المرتبة العليا من مراتب السماع. أما المعنى الأصلي فقد ورد في مثل قوله: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ [يوسف:٣١]، ونحوها من السياقات التي هي في الإخبار عن استعمال حاسة السمع، لكن القرآن عندما يحثّ الإنسان على تفعيل سمعه، فهو إنما يحرص على الارتقاء به إلى مستوى الفهم والقبول، وذلك كما في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ۝٢٠ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ [الأنفال:٢٠-٢١]، وكذلك عند الأمر به، كما

في قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ [الأعراف:٢٠٤]، فالسماع على درجات، باعتبار ما يطالب الله به عباده من الاهتداء بكتابه، أعلاها في حق المؤمن أن يسمع فيفقه، ويتعقل فيعمل. ومما يدل على شرف هذه الرتبة وأهميتها أنه ورد الأمر بالسمع بوصفه فعلاً تعبّديّاً، مقترناً بالأمر بالتقوى كما في قوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟﴾ [التغابن:١٦].

ثم إنّ الحضّ على السمع لا يختصّ بسياق الحديث عن القرآن الكريم، وما يدعو إليه من التقوى والاستجابة لدعوته فحسب، وإنما يرد كذلك عند الحديث عن سنن الاجتماع أو الآيات الكونية، كما في قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [النحل:٦٥]، مما يدل على أن الحثّ على السمع ينطبق على المجال المعرفي بعمومه، والتفعيل المنهجي له إنما يكون بالتكامل بين المستوى الحسي القائم على إدراك الصوت، وأثره في الفهم والاعتبار.

٢- البصر ومرادفاته في القرآن الكريم:

يستعمل لفظ (البصر) في القرآن الكريم للدلالة على حاسة الرؤية؛ إذ اقترن بآلتها، وهي العين في مثل قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ﴾ [الأعراف:١٩٥]، كما اقترن بالسمع في سياق الامتنان على الإنسان بأدوات الإدراك. والبصر يطلق على الإدراك الحاصل بالعين التي بالرأس، كما يَرِد اسماً للقوة التي بها إدراك المبصرات، ويقال كذلك لقوة القلب المدركة بصيرة وبصر. وقد ورد جذره في القرآن (١٥٠) مرة، ومع غلبة استعماله في معناه الأول الدال على الحاسة، فإن العديد من المفسرين يشيرون إلى دلالته مجازاً على البصيرة والعلم في العديد من المواضع، ولعلّه الراجح عند استعمال القرآن لوصف "أولي الأبصار" كما في قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ فلفظ البصر هنا يتجاوز بدلالته مستوى إدراك المحسوسات إلى معنى التأمل الموصل للعلم.

ومن الألفاظ التي تقارب البصر لفظ (النظر) الذي يدل على تأمل الشيء بالعين، وتقليب الحدقة نحو المرئي التماساً لرؤيته، إلى جانب دلالته على حركة القلب لطلب

علمٍ بما يشمل البصر والبصيرة. وقد ورد جذر (نظر) ما يقارب (١٣٩) مرة، وفُسّر بوجوهٍ منها التفكر والاعتبار، وهو المعنى الذي يغلب عند الحثّ عليه أو الأمر به بصيغ من مثل (أفلا ينظرون، أولم ينظروا) و(انظر، فلينظر، انظروا) ونحوها. فالأمر بالنظر في القرآن يُستعمل فيما يصلح للنظر البصري والعقلي معاً؛ إذ يعدل البيان القرآني عن إعماله عمل أحدهما لئلا يتمحّض له، فيمكن حمله على كليهما، وكأن المقصود هو الحثّ على إيقاع النظر التام على كل شيءٍ يقدر الإنسان على النظر به من بصرٍ وبصيرة، بدءاً من النظر في الأمر الميسر له والضروري المكرر في حياته كطعامه كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ [عبس:٢٤]، وصولاً إلى القضايا الأدقّ، كالنظر في المادة التي خُلق منها الإنسان، كما في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق:٥] أو النظر بقصد تعرّف كيفية خلق الأشياء، والذي ركز القرآن عليه في العديد من السياقات، سواء كان موضوع المعرفة الآيات الكونية ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية:١٧] أو عند الأمر بالسير في الأرض؛ إذ يقترن بالدعوة إلى النظر في كيفية العاقبة التي حلّت بمن قبلهم، مما يدل على أن المطلوب هو مستوى متقدم منه، يراد به اكتشاف سنن الله في التدافع والتداول، والقوانين التي تحكم مسيرة الإنسان والمجتمع عبر التاريخ.

وهذا المستوى المتقدم من النظر، نجده مطلوباً كذلك في الاستعمال القرآني للفظ (الرؤية)، والذي ورد جذره في القرآن فيما يزيد عن (٣٠٠) موضع، وأكثره بصيغة (ألم تر) ونحوها مما جرى مجرى المثل في ملازمته لأسلوب التحريض على الرؤية، وهي ترد غالباً في سياق الإخبار عن أحوال الأمم السابقة وما حلّ ببعضها من الهلاك والعذاب أو عند بيان الآيات الكونية أو أحوال غير المؤمنين وسلوكاتهم تجاه الدعوة في المجتمع، وهذه القضايا ونحوها ليس من شأن الإنسان أن يراها ببصره، مما يدل على أن المطلوب هو المعنى المجازي العقلي الدال على الرؤية القلبية العلمية الموصلة إلى الحقيقة. وعليه، فإن اشتمال مفردات الحواس، من السمع والبصر والنظر والرؤية، في مادتها اللغوية على مستويين: الأول حسي مادي، والثاني مجازي وهو تأملي إدراكي أو عقلي علمي، وتركيز القرآن على المستوى الثاني، لا سيما عند توظيفها

في قضايا دقيقة عميقة متعلقة بالمجالات المعرفية المختلفة (الكونية والإنسانية والاجتماعية والتاريخية)، ومقترنة في بعضها بطلب إدراك الكيفية، والذي يمثل مستوىً أعمق من إدراك الذوات، يدلّ على أن التفعيل المنهجي للحواس لا يكون بالوقوف عند العملية الحسية المتمثلة بالإدراك فقط، بل باستخدامها وتوظيفها في إطار مزدوج (حسي- عقلي) بحيث تقارب مجال الإدراك العقلي، وتخدم العمليات العقلية المختلفة.

٣- ارتباط الحواس بالعمليات العقلية في القرآن الكريم:

يرد الارتباط بين الحواس والعقل في القرآن في مواضع، أهمها: الجمع بين الحواس والفؤاد كما في قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨]، إلى جانب اعتبار تعطيل الحواس كتعطيل العقل، لأنها وسائل له، قال تعالى: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١]. كما يرد ارتباط الحواس بالعلميات العقلية العليا، التي يُعبّر عنها بألفاظ من مثل التفكر والتفقه والتدبر ونحوها، وهي وإن كانت تؤكد لفظ العقل ومبدأ إعماله إلا أنها تشتمل على دلالات لغوية، وتُوظّف في موضوعات قرآنية، تجعلها في مرتبة أدقّ وأعمق من مجرد التعقل، بل إن في نصوص القرآن ما يجعلها في ذاتها غايةً ومقصداً من مقاصد نـزوله، كما في قوله: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٤٤]، ويتجلّى ارتباطها بالحواس من خلال أمرين: الأول: اقتران ذكر ألفاظ الحس بالعمليات العقلية في العديد من المواضع، كما في قوله: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ﴾ [الأنعام:٦٥]، وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ [ق:٣٧] إلى جانب المقاطع القرآنية في (النحل:١٠-١٧) و(الروم:١٧-٢٨) ونحوها. والثاني: اقتران ذكر العمليات العقلية -من مثل التفكر والتذكر- بضرب الأمثال، والتي يوظّفها القرآن الكريم في قضايا الاستدلال، فيأتي في المثل بقضيةٍ متفقٍ عليها حتى عند الخصوم، بقصد تقريب المعقول بالمحسوس، ورجاء أن يتفكروا فيها، فينيبوا إلى الحق وينقادوا له، كما قال تعالى: ﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم:٢٥].

فالنصوص القرآنية تصل بين العقل والحس وصلاً قوياً، فكما أنّ الفعل الحسي يحمل أسباباً عقلية، فكذلك الفعل العقلي يحمل أسباباً حسية، والمعقول مهما بلغ من التجريد فإنه يبقى حاملاً لأسبابٍ حسيةٍ، لولاها لما أمكن تنـزيل المعقولات، على الأشياء الحسية والمجربة، ويظهر أثر هذا التفاعل (الحسي-العقلي) في منهج الاستدلال القرآني كما سيأتي.

الفصل الثالث

مبادئ السلوك المنهجي في القرآن الكريم

يتأثر النشاط المعرفي بالنفس الإنسانية ودورها الحاسم في الوصول إلى الحق والعلم، وتقبله أو الانصراف عنه. فالقرآن الكريم يحرص على تزكية النفس بالقواعد الأخلاقية التي تضبط المجال العلمي وتؤثر في ترشيد المعرفة، ويطلق على هذه القواعد مصطلح "مبادئ السلوك المنهجي؛" أي القيم الأخلاقية التي تُرشّد سلوك الباحث عند البحث العلمي. وهي مبادئ تمثل أخلاقيات البحث العلمي وقيمه الإنسانية، وتتضمن جانبين: القيم التي ينبغي التزامها، والصفات التي يجب الحذر منها، وتسعى هذه الدراسة إلى الكشف عن القيمة الأساس في كلٍّ من ثنائية الالتزام والترك، وبيان أهمية القيم المنهجية من خلالها.

أولاً: التربية المنهجية على القيام للحق

١- مفهوم التربية المنهجية، ومبادئها في السياقات القرآنية:

لما كان التفكير المنهجي يتأسس على إعمال العقل والحس في أعلى مستويات الإدراك، للوصول إلى الدليل الحق واتباعه، فإن الجانب السلوكي المرتبط بالأخلاق يستند إلى الأساس ذاته ويتكامل معه، فيهدف إلى تربية النفس الإنسانية على الاتّباع الدائم للدليل الذي يحكم العقلُ والحس بصحته، وتقديمه على أهواء النفس ورغباتها. ويُطلق على هذه التربية الهادفة إلى تحقيق هذه الغاية "التربية المنهجية"؛ وهي ترتكز على قاعدة خلاصتها: أنّ الحق هو المقصود، والدليل الموصل إليه هو المُتّبَع، وعلى النفس الإنسانية تقديم ذلك على أهوائها ورغباتها، وذلك في مختلف مراحل البحث العلمي بدءاً من الاستعداد النفسي الذي يسبقه، مروراً بممارسته بالنظر والاستدلال. ومن ثم، الالتزام بنتائجه وتطبيق مقتضياته في الواقع.

ولتأصيل هذه القاعدة من القرآن يمكن النظر في أهم السياقات القرآنية التي تقرر معناها، ثمّ محاولة استنباط تعبير أو مفهوم قرآني يشير إليها. والبداية في قوله

تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم﴾ [سبأ:٤٦]، فالآية دعوةٌ خالصةٌ إلىٰ منهج البحث عن الحق، وإرشادٌ إلىٰ كيفية الاستعداد للتفكر والنظر، وهي دعوةٌ (واحدةٌ) إن تحققت صحّ المنهج واستقام الطريق، وهي القيام لله مخلصين له، وترك الهوىٰ والعصبية والمصلحة.

ويجب علىٰ الإنسان أن يقف موقف الحياد أمام الأدلة، ويحرص عليها وعلىٰ اتباعها ولو كانت عند خصمه، كما يشير إلىٰ ذلك قوله تعالىٰ:﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٢٤]، وقد ظهر تطبيقه في مواقف العديد من الأنبياء عليهم السلام، كقول إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:٨١] ؛ إذ اختار أن يقول ﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾ ولم يقل أنا أحق بالأمن، كما لم يصرح بأن منهجهم هو الباطل والضلال ومنهجه هو الحق والصواب، وذلك لمنتهىٰ الحيدة في الجدل، ويتأكد هذه الموقف في العديد من الآيات كما في (هود:٣٥) و(سبأ:٢٥) وغيرهما.

٢- مفهوم القيام للحق أساس التربية المنهجية:

إذا أردنا تحديد مفهومٍ قرآنيٍ يضم الإشارات القرآنية الدالة علىٰ الأساس الأخلاقي في البحث العلمي، فإنه يمكن الابتداء من لفظ (القيام) الذي ورد في قوله تعالىٰ: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ وهو مفهومٌ مركزيٌ في القرآن، ورد جذره فيما يزيد عن (٦٥٠) موضعاً، مرتبطاً في الغالب بقضايا جوهرية في الدين كإقامة الصلاة، وبيان حدود الله، إلىٰ جانب اقترانه بالدين ذاته كما في قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [التوبة:٣٦].

وقد وُظّف لفظ القيام في سياقٍ يقارب آية (سبأ:٤٦)، وذلك في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء:١٣٥]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [المائدة:٨]. فالقوّام

صيغة مبالغة مِن قام بالأمر إذا تعهده وحفظه وتولاه بعنايته، ورد الأمر به بقوله: ﴿كُونُواْ﴾ وهو أمر بالكينونة بأن يجعلوا القيام لله جزءاً من كيانهم، وارتبط في آية النساء بالقسط لله عند الشهادة، والتي هي سبيل الحق وطريق معرفته، فتعمّ كلّ قولٍ وعملٍ يلزم أن يقوم المرء به لله ويجعل الشهادة له فيه. ويستفاد من مجموع الآيتين وجوب القيام لله بالعدل والشهادة به، مع السلامة من المحاباة، سواء كان دافعها حبُّ الإنسان نفسه أو والديه والأقربين أو ذوي الشأن في المجتمع، والسلامة كذلك من العداوة لأحدٍ أو بغضه والذي قد يحمله على ترك العدل.

وعليه، فإن **مفهوم القيام لله** ﴿قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾ ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ مفهومٌ أساسيٌ في القرآن الكريم، ولما كان **الله هو الحق** كما في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ فإنه يمكن أن يُستنبط من ذلك مفهوم "**القيام للحق**"، والذي يدل على القيام للحقيقة بتجرد، بعيداً عن الهوى والمصالح أو التأثر بالسائد في المجتمع، إلى جانب الوقوف موقف الحياد أمام الأدلة، والحرص على الوصول إليها والتزامها أيّاً كان مصدرها أو القائل بها، ويمكن ضبط ذلك بأن القيام للحق هو التجرد لطلب الحقيقة وتقديمها في كل حال.

ولعل ترجيح هذا المفهوم على "القيام بالحق" يرجع إلى كون الأخير يشير إلى أن الحق قد ثبت لدى المرء قبلُ، ثم إنه يقوم به؛ أي ينهج به ويلتزمه، أما "القيام للحق" فيفيد معنىً أعمّ، ويدل على أن الإنسان مجتهدٌ ومتجرد لغرض البحث عن الحق وتبيّنه وبلوغه ابتداءً، فالتزامه والعمل به عند الوصول إليه.

ثانياً: السلامة من اتباع الهوى وتكامل القيم في المنهجية القرآنية

إن مبدأ القيام للحق، الذي ترتكز عليه أخلاقيات البحث العلمي في جانب الالتزام، يقابله ضرورة السلامة من كلّ مانعٍ أو عائقٍ يحول دون الوصول إلى غاية العلم، ولعل أخطر هذه العوائق اتباع الهوى، ذلك أن الهوى يؤثّر في توجيه الاقتناع العقلي، فإذا توجّه إلى حبّ الذات أورث الاستكبار، وإذا توجه إلى حبّ الشهوات كان سبباً في صرفِ الإنسان كلَّ جهده واستعداداته فيما يوافق شهواته التي مال

إليها، ولذلك فقد جاء الشرع بحسم مادة الهوىٰ بإطلاق؛ لأنه إذا صار الهوىٰ بعض مقدمات الدليل لم ينتج عنه إلا اتباع الهوىٰ المنهي عنه، وذلك مخالفة للشرع، وفساد في الاستدلال.

١- السلامة من اتباع هوىٰ النفس:

ورد لفظ (هوىٰ) ومشتقاته في القرآن الكريم في أكثر من (٤٠) موضعاً، وهو يدل في أصله اللغوي علىٰ سقوط وخلوٍّ، وهوىٰ النفس يشمل المعنيين معاً؛ لأن متّبعه خالٍ من كل خير، ويهوي به هواه فيما لا ينبغي.

وقد عظّم القرآن الكريم ذمّ اتباع الهوىٰ، في كل المواضع التي ورد فيها، وهي في أكثرها تتعلق بالمجال المعرفي والمنهجي؛ إذ يرد في سياقاتها ذكر العلم كقوله: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ﴾ [الروم:٢٩]، أو ذكر المنهج كقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ (المائدة:٤٨)، فاتّباع الهوىٰ نقيض القيام للحق، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ﴾ [النساء:١٣٥]، فقوله ﴿أَن تَعۡدِلُواْ﴾ بيان للغاية من عدم اتباع الهوىٰ، وتنبيه علىٰ أن القيام بالعدل واتباع الهوىٰ متنافيان لا يجتمعان.

وعليه، فإن اتباع الهوىٰ نقيض التفكير المنهجي الذي يقوم علىٰ النظر في القضايا بموضوعية وحياد؛ لأن الهوىٰ في مفهومه هو رأيٌ ناشئٌ عن شهوة لا عن دليل، ولذلك كان التفريق القرآني صريحاً بين صاحب البيّنة وصاحب الهوىٰ، والذي يعكس الفرق بين الموضوعية والذاتية، ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم﴾ [محمد:١٤].

٢- تكامل القيم الأخلاقية في المنهجية القرآنية

إذا كان الهوىٰ أصل الصفات الذميمة، التي نهىٰ عنها القرآن، ويمثّل اتباعه أشد العوائق التي تحول دون سلامة الوصول إلىٰ الحقيقة والعلم، فإن هناك العديد

من الصفات التي ترتبط به، وتؤثّر كذلك في سلامة النشاط المعرفي لدى الإنسان، من أهمها: (الكبر)، و(التقليد)، الذي يُعرّف بأنه: اتباع الإنسان غيره في القول أو الفعل، معتقداً الحقيقة فيه، من غير نظر أو تأمل في الدليل. وقد شنَّ القرآن حملة على الجمود والتقليد في كلّ صوره، بما يشمل تقليد الآباء والأجداد، والسّادة والكبراء، وأصحاب السلطان، والأحبار والرهبان كما في قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠-٣١]. فالمنهج القرآني يرتكز على حرية الإنسان في تفكيره، ومسؤوليته عن قناعاته التي ينطلق بها من قاعدة فكرية متينة، فلا يخضع لضغط الرغبات النفسية أو المصالح أو الارتباط بالآباء والمجتمع، ولكنها الحقيقة وحدها التي ينبغي للإنسان السعي إليها بالتأمّل والتفكير والبحث. والصفة الأخلاقية للإنسان التي تقوم على تطلعه إلى التحقق بالأخلاق الحسنة والقيم العليا، تنطبق على عمله البحثي ونشاطه المعرفي وتضبطه بجملة من القيم المنهجية، وقد عُني القرآن ببيان الأثر العملي لها من خلال ما ذكره من أخبار الأمم السابقة -وأهل الكتاب منهم خاصة- وبيان موقفهم تجاه الحق الذي أُنزل عليهم، وأُنزل من بعدهم. فأكثر أهل الكتاب إما علماء معاندون أو عوام مقلدون؛ أما العوام فمما يرد في بيان حالهم قوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة:٧٨]، فهم لا يعلمون ما في الكتاب المُنزَل ولا يفقهون ما ورد فيه، وأما علماؤهم، فقد تبيّنوا الحق وحصّلوا العلم، ويوضح القرآن أن أكثرهم يأتي بما يناقض ذلك، سواء في الموقف الذاتي الوجداني أو في الموقف السلوكي العملي؛ إذ أشار القرآن إلى العديد من مظاهر انحرافهم فيه، كقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾[النساء:٤٦] [المائدة:١٣]، وقوله: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٧٥]، مما يدل على أن قضية الكفر والتحريف عندهم لم تكن منطلقة من فكرهم المخالف، بل من أنفسهم المنحرفة الغارقة في الأطماع والشهوات.

وقد ورد في القرآن الكريم وصفٌ مهمّ يمكن أن يمثّل حال الذين يحرصون على التمسك بالمنهج الرباني، والتحقق بالقيم المنهجية، وهو وصف "الربانيين" الوارد في قوله: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾ [آل عمران:٧٩] ذلك أنهم بلغوا الرتبة العليا في التخلق بما يليق بنسبتهم لله رب العالمين، وبوصفهم بالتربية، كما أنهم قاموا بتوظيف ذلك كله في رعاية أمور الخلق ومصالحهم.

الفصل الرابع

أهمية الدليل ومنهج الاستدلال في القرآن الكريم

تمثل مسألة الدليل أصل أصول المنهجية العلمية، وروح التفكير العلمي وجوهره، ذلك أنّ العلوم كافةً تستند إلى الدليل وتخضع له، ويعرض القرآن الكريم قضاياه مدلّلة ومدعومة بالآيات البينات، ويدعو إلى اتباع الحجة والبرهان للوصول إلى الإيمان به، وتستند إليه المصادر التشريعية الإسلامية الأخرى، وتستمد منه قوة حجيتها ودلالتها.

أولاً: أهمية الدليل في القرآن الكريم

١- أهمية الدليل في مستوى المفردات القرآنية:

يرجع لفظ الدليل في اللغة إلى معنى إظهار أمرٍ خفيٍ وبيانه والدلالة عليه، ورغم قلة استعماله في البيان القرآني، وعدم وروده في معنى الحجاج أو الاستدلال الموصل إلى اليقين، إلا أنه مُتَأَكِّدٌ من خلال نظائره، فالحجة والسلطان والبرهان والآية والعلامة كلها نظائر تنتمي إلى الحقل الدلالي المرتكز على مفهوم الدليل. أما (البرهان) فقد ورد في القرآن في ثمانية مواضع كلها بصيغة الاسم، فهو الدليل القاطع الذي يفيد صحة الدعوى، ويؤدي إلى العلم، ويقاربه في قوة الدلالة لفظ (السلطان)، الذي ورد جذره في (٣٩) مرة، وهو يدل في اللغة على معنيين الحجة، والقوة أو السطوة، واستعماله في الحجة أكثر. ومن المفاهيم القرآنية: الآية والبيّنة، وهي لا تخرج عن معناها اللغوي الدال على العلامة التي تتسم بالقوة في الثبوت، وترد في الغالب عند الحديث عن الآيات الكونية أو الآيات التي هي معجزات الرسل المصدقة لهم أو آيات الأحكام التي تبين المنهج التشريعي العملي، وهي بذلك تكاد ترد في السور القرآنية جميعها، وتُوظّف في التدليل على أهم قضايا القرآن من وجود الله وتوحيده والنبوة والتشريع.

وينتمي إلى الحقل الدلالي ذاته لفظ (الحجة)، والذي يرجع في اللغة إلى أصل القصد، وقد ورد جذره في القرآن في (٣٣) موضعاً، منها عشرون بمعنى الدليل والبرهان، بالصيغ الفعلية (حاج، تحاجوني، حاججتم ونحوها) تفيد المفاعلة في إقامة الحجة، وتطلق على كلّ ما يأتي به أحد الخصمين لإثبات دعواه أو ردّ دعوى خصمه، وهي بهذا تقارب جملة من المفردات القرآنية، فالمحاجة والمجادلة والمناظرة نظائر، وبذلك يتوسع الحقل الدلالي المرتكز على مفهوم الدليل، ليشمل مفرداتٍ مثل الجدل والخصام والنـزاع والحوار والمراء ونحوها، مما يجعل القرآن الكريم في مجمله خطاباً حجاجياً، يكثر فيه بصورةٍ لافتةٍ تحاور الشخصيات وجدالها، فالخطاب الحجاجي القرآني يرتكز على عرض الأقوال ونقاشها والرد عليها، وتتأصل فيه سائر القضايا بما في ذلك قضايا الإيمان والعقيدة، وفق المنهج الاستدلالي الذي يبين الحجج ويطالب بالصحيح منها والمطابق للحق.

٢- أهمية الدليل في مستوى التراكيب اللغوية والسياقات القرآنية:

وظَّف البيان القرآني الألفاظ المرتبطة بالدليل في العديد من التراكيب اللغوية والسياقات التي تؤكد أهميته، فمن ذلك الأمر الإلهي المتكرر أربع مرات في قوله: ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ (البقرة:١١١) (الأنبياء:٢٤) (النمل:٦٤) (القصص:٧٥)؛ أي أحضروا دليلكم؛ إذ يتقرر به القاعدة القرآنية "لا دعوى بغير برهان"، وقد عُلّق الأمر بشرط الصدق ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في موضعين (البقرة:١١١) و(النمل:٦٤)، ولعل استعمال "إن" الشرطية المفيدة لاحتمال الشّكّ، يتضمن دلالة تعليمية للأمة بأن تقف موقف الحياد أمام الأدلة، وأنّ على الإنسان وإن تيقن صدق دليله وقطعيته أن يترك مجالاً، لاحتمال صدق المخالف، فيسمع دليله ويمحّصه من خلال الاحتكام إلى ميزان الحق.

وقد تكرر هذا التعبير القرآني في مواضع ترتبط كلها بقضية الألوهية، ويُستنكر فيها منهج اتباع الآلهة أو العقائد الزائفة دون برهان أو سلطان، ولا يُفهم من ذلك أنه قد يكون مع المشرك يوماً برهان له على شركه، وإنما المقصود بيان الواقع الذي لا ينفك عن دعوى الشرك بالله، وهو خلوّه عن الدليل، إلى جانب تعظيم قيمة البرهان،

فقط عظّم الله سبحانه شأن الدليل في دينه، وأناط به تصديق دعوى المدعي وردها، بصرف النظر عن موضوعها، حتى كأنّ من جاء بالبرهان على الشرك يُصدّق به، وهو من فرض المحال، للمبالغة في فضل الاستدلال. والمقصود من هذه التراكيب والأساليب القرآنية، هو التهكم والتبكيت وإظهار كذب المخالفين، على اعتبار أنه من المحال أن يكون لهم برهان على دعواهم، ويؤيد هذا الاتجاه أن القرآن سمّى ما يتمسّك به المخالفون حجة، ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجاثية:٢٥]، وفي ذلك إشارة قوية إلى ضرورة دعم كلّ رأيٍ واردٍ في الحوار بالدليل، واعتبار كلّ قولٍ يُساق مساق الدليل هو حجةٌ مسموعةٌ ومطلوبة. ومن ثم، مطروحة للتمحيص والتحقيق وفق منهج الحق والصواب.

ويظهر تأكيد أهمية الدليل في العديد من المقاطع القرآنية، مثل: (الأنبياء:١٦-٢٤) و(النمل:٥٩-٧٠)؛ وفيها جملة من الدلائل والآيات (الكونية أو الإنسانية) بشكلٍ متتالٍ متتابع، وتوظيف مفاهيم إعمال العقل كالتفكر والتذكر، ومفاهيم تفعيل الحواس كالسمع والبصر، إلى جانب مفاهيم الحق والعلم، التي تمثل غاية الدليل ومقصده فيها جميعاً وبشكلٍ لافتٍ، بحيث يمكن عدّها سياقات منهجية تتكامل فيها عناصر المنهج، وتُوظّف فيها أصول التفكير المنهجي في التدليل على قضايا القرآن الكريم.

ثانياً: منهج الاستدلال في القرآن الكريم

١- تحرير مفهوم منهج الاستدلال:

إن الأهمية التي أولاها القرآن للدليل، تقتضي بيان منهج الاستدلال الذي تضمنه، وينبغي في البداية التفريق بين الدليل ومنهج الاستدلال وأسلوبه، أما الدليل فهو ما يرشد إلى كشف أمرٍ خفيٍ وبيانه، ويتكون من مضمون وصياغة، ومضمونه هو معنى الدليل وفحواه وما يعتمد عليه من مقولات عقلية أو نقلية، أما الصياغة فهي تلك الطرق التي يصب فيها المستدل دليله، ويعبّر عنها "بأسلوب الاستدلال"، وهي ترجع في القرآن إلى جملة الظواهر اللغوية التي يوظفها، وتصبح بحكم ترددها وتكرارها أسلوباً في القول والبيان يميّزه، ويمثّل خصائص القرآن الأسلوبية.

ويستند منهج الاستدلال إلى مفهوم (الاستدلال) وهو: تقرير الدليل لإثبات المدلول، فهو عمليةٌ عقليةٌ تستند إلى إيراد الأدلة وإقامتها، وتقوم على استنباط قضيةٍ من أخرى للوصول إلى حكمٍ جديد يغاير الأحكام التي أُستنتج منها، وفق قواعد تضبط صحة الانتقال من المعلوم إلى المجهول. وعليه، فإن النظر والتأمل والتفعيل لوسائل الإدراك الحسية والعقلية بحثاً عن الدليل الموصل إلى الحق، إنما يكون وفق خطوات منظمة، يمكن أن نسميها "منهج الاستدلال". وهو على قسمين: الأول منهج الاستدلال بالقرآن الكريم بوصفه دليلاً ومصدراً تشريعياً، والثاني منهج الاستدلال الوارد في القرآن وما تضمنه من الأدلة العقلية والبراهين المختلفة، سواء على ثبوته وبرهانيته في ذاته أو على قضاياه الإيمانية، التي أتى بها.

٢- الاعتبار منهج القرآن في الاستدلال:

يمكن أن نُرجِع منهج الاستدلال الوارد في القرآن إلى قاعدةٍ أساسيةٍ كليةٍ، وإجمالها في خطوتين: تفعيل الأدوات المعرفية في العالم المحسوس، ثم العبور بذلك للنظر والتأمل العقلي في المسائل الغائبة غير المشاهدة. فالقرآن يجعل أساس اليقين في المعرفة نابعاً من الحواس المدركة أو واصلاً إليها بحيث تكون الأدلة إما أدلة حسية مباشرة أو تتصل بالمحسوسات بطريق غير مباشر، لكنه لا يقف بالإنسان عند حدود المعرفة الحسية المستندة إلى المشاهدة والتجريب فحسب، وإنما يقصد منها دائماً العبور إلى معرفة غائبة غير مشاهدة، والغيب هو كل غائب عن مجال الإدراك الحسي حسب العادة، فيشمل ابتداءً الكون المادي الذي يقبل كلّ غيبٍ فيه أن يكون من عالم الشهادة، وانتهاءً بقضايا الغيب الكبرى التي تمثل جوهر الدعوة القرآنية، وتتعلق بالألوهية والنبوة والمعاد.

فالمنهج القرآني يقوم على حثّ العقل الإنساني على تجاوز مرحلة الظواهر والمحسوسات إلى التساؤل عن الماورائيات الغيبية، ويركز على القضايا الإيمانية منها خاصة؛ لأنها تمثل جوهر الدعوة القرآنية، وهذا المنهج الاستدلالي الذي يتأسس على العبور الدائم من الشاهد إلى الغائب، يُعبّر عنه بـ (الاعتبار)؛ أي التجاوز من حالٍ إلى حال، والعبرة هي ما يُعبَر بها من الحس إلى العقل ومن الجهل إلى العلم، وهو ما يمثل جوهر منهج الاستدلال في القرآن الكريم.

ومما يؤكد أهمية لفظ الاعتبار أنه ورد مرتبطاً بذكر الآيات التي هي محل نظر وفكر، سواء كانت آيات كونية أو آيات إنسانية، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أهل البصائر الذين لهم بصر ينظر وبصيرة تتدبر، وكذلك اختصاصها بأولي الألباب ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١]؛ أي أصحاب العقول الذين يتفكرون ويتأملون وينتفعون بالمعرفة. وإن هذا المنهج الاعتباري الذي يتميز به الاستدلال القرآني ينطبق على كلّ الأدلة الواردة في القرآن الكريم، سواء غلب فيها البرهان الحسي التجريبي أو العقلي النظري، ويتجلى واضحاً في المنهج الإبراهيمي؛ إذ يرد في قصة إبراهيم عليه السلام البحث عن الأدلة والحجاج بها، سواء مع نفسه أو مع أبيه أو قومه أو الملك في زمانه، وترد حججه فيها، إما بالقول أو بالفعل؛ أي ما يشمل الاستدلال العقلي والاستدلال الحسي التجريبي معاً.

٣- تكامل منهج الاستدلال القرآني وتمايزه عن المناهج الإنسانية:

إن منهج الاعتبار القرآني الذي يرتكز على استخدام مسلكي الإدراك الحسي والاستنتاج العقلي معاً للوصول إلى اليقين، ويقوم على الثنائية في الموقف المعرفي، سواء ما تعلق بأدوات المعرفة (الحس-العقل) أو بموضوعها وهو العالم بطرفيه المحسوس منه والغائب، يجعله منهجاً متكاملاً يتضمن الأصول العامة للأدلة الحسية والعقلية جميعاً، ويضمّ كل صحيحٍ مقبولٍ من المناهج الإنسانية ويتمايز عنها. فإذا طُلب فيه المنهج العقلي الاستنباطي كالقياس أو الاستقراء أو التمثيل، ففي القياس نجد مثلاً الاستدلال على المعاد بقياس الإعادة على الابتداء، كما في قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف:٢٩]، وفي الاستقراء نجد قوله: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [العنكبوت:٢٠] فالسير في الأرض يكون بتتبع أحداث الأمم السابقة وآثارهم لاستفادة قواعد كلية وسنن عامة تنظم مسيرة الإنسان والمجتمع، والتمثيل كذلك له أمثلة عديدة في القرآن الكريم. وإذا طُلب في القرآن الكريم المنهج التجريبي، فإن العديد من الآيات يمكن أن تُمثّل له، فمن ذلك الملاحظة الموجهة، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك:٣-٤]، وكذلك المشاهدة، التي

ركز البيان القرآني على أهميتها وجهاً استدلالياً، وتجربةً حسيةً بصريةً واقعيةً تؤدي إلى علمٍ حقيقيٍّ، كما في قوله: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾ [الصافات:١٥٠]، والتجريب كذلك له أمثلته كما في قصة الذي مرّ على قريةٍ (البقرة:٢٥٩).

أما تمايز منهج الاعتبار القرآني عن المناهج الإنسانية وهيمنته عليها، فيمكن أن نمثّل له باختلافه عن منهج الفلاسفة والمناطقة المتقدمين، سواء في مستوى المصطلحات أو في طرق المناظرة والجدال. كما يمتاز عن المنهج العلمي التجريبي في قضية العبور من الظواهر الكونية إلى خالقها، فالمنهج التجريبي يقرّ تعرّف صدق قضيةٍ ماديةٍ محسوسةٍ بالمشاهدة والتجربة، لكنه لا يبلغ الدرجة التي يمتاز بها المنهج القرآني، والتي تقوم على النظر والتفكر في الكون، وما فيه من الآيات بوصفها مقدماتٍ مشاهدة وضرورية لإثبات ما وراءها من أمور الغيب التي أخبر بها القرآن الكريم. فالبحث في منهج الاستدلال القرآني، وإظهار تكامله وتمايزه، والحرص على تفعيل أثره في المناهج الإنسانية والمجالات المعرفية المختلفة، ما زال بحاجة إلى جهدٍ ودراساتٍ تفصّل في مسائله، وتعمّق البحث فيما يُشكِل من قضاياه، ومن ذلك مثلاً مسألة المعجزات، فهي مسألة مهمّة تتعلق بالدليل ومنهج الاستدلال، ولها مكانتها من المنهجية العلمية في القرآن الكريم.

ثالثاً: دليل المعجزة ومكانتها من المنهجية القرآنية

١- مفهوم المعجزة ودلالتها:

ترتبط مسألة المعجزة بقضية الدليل بوصفها آية ودليلاً بالنص القرآني ذاته، ترد على يد الأنبياء تصديقاً لهم، وقد عدّها العلماء الدليل الوحيد على نبوة النبي، ذلك أن الإيمان بالدين لا يتم إلا بالاعتراف بالنبوة، ولا سبيل إليه إلا بالمعجزة. وهي المعجزة الحسية، فكونها دليلاً لازماً لدعوة النبي، يلزم عنها صدقه ويتوقف عليها الإيمان به ليس على إطلاقه، فقد ثبت أن دعوة الأنبياء السابقين خاصة بأقوامهم، كما تدل على ذلك النصوص القرآنية من مثل قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف:٦٥]، والحديث: "وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة" (متفق عليه).

فمكمن الإعجاز في المعجزة الحسية الخاصة بالنبي ليس في جنس فعل المعجزة، بل في الوجه الذي جاءت عليه والسبب الذي حصلت به، وقد ميز العلماء بين المعجزة والسحر باعتبار أن الأخير: أمرٌ خارقٌ للعادة مطرد الارتباط بسببٍ خاصٍ به، فالسبب يُعرف ويُؤتى بمثله في السحر، ولا يمكن أن يُعرف ويؤتى بمثله في المعجزة. وعليه، فالمعجزة الحسية يمكن أن تكون من جنس مقدور البشر، لكن وفق آلية أو سبب يخالف الآلية أو السبب الذي أيّد الله النبي به وجعله خاصاً به لا يتأتى لغيره.

٢- مكانة المعجزة من المنهجية القرآنية:

مما سبق يمكن إعادة تعريف المعجزة الحسية بأنها: فعلٌ خارقٌ للعادة **في زمن الرسالة**، مقترنٌ بدعوى النبوة، **وحاصلٌ على وجهٍ أو سببٍ** لا يمكن الإتيان به. وهي ترتبط بالنبوة ارتباطاً منهجياً؛ لأنها تأتي برهاناً ودليلاً على صدق النبي بما يناسب طبيعة دعواه، فالنبي في المعجزة -وبتأييد من الله كذلك- يكسر سلسلة الأسباب الموصلة إلى المسبَّب عنها، ويأتي بوجه أو سبب خاص به، يعجز عن مثله غيره من البشر، وبذلك يتحقق التوافق المنهجي بين الدليل والمدلول. وبما أن المعجزات الحسية ليست دليلاً مثبتاً لنبوة الأنبياء لانقضاء زمانها، ولا يمكن تحصيلها بالسبب والوجه الذي حصلت به، فإن محاولة الوقوف على الهدف من ذكرها ووجه ارتباطها بالمنهجية العلمية التي أسس لها، يقتضي الإشارة إلى أن القرآن سماها آيات الأنبياء، وعبر عنها بالبرهان والسلطان، فهي لا تخرج في مفهومها عن البرهان والسلطان البيّن الواضح، وهي لا تخرج عن هذا النظام الكلي، ولم تأت خرقاً له، بل برهاناً وحجة قاطعة تدعمه وتثبته، فالآية الحسية الكونية التي ينبغي النظر فيها وفهم قوانينها وتسخيرها، يتكامل دورها مع الآية الحسية التي يأتي بها النبي، فتنبه العقل إلى نظام السنن والقوانين الحاكمة للكون.

فالإيمان بالمعجزات تقرير لموقف عقلي يستوجب التسليم بوجود إلهٍ خالقٍ مهيمنٍ على الكون، ومتصرّفٍ فيه وفق نظام محكم، وهو قادرٌ على أن يخرقه أو يستبدله بنظام غيره. فكما يراد بذكر الآيات الكونية الدلالة على قدرة الله إلى جانب الحثّ على النظر فيها وتفعيل قوانينها وتسخيرها في عمارة الكون، ويراد بالآيات

التشريعية إعمال النظر في فهم حِكَمها ووجه تطبيقها والعمل بها، فإن ذكر آيات الأنبياء ومعجزاتهم يتضمن إلى جانب الدلالة على قدرة الله ونبوة الأنبياء، الدعوة إلى إعمال أدوات الفكر والبحث في الأسباب التي يمكن أن توصل إلى مثل مُؤدّى المعجزة -أي الآثار الواقعية التي حققها الأنبياء بمعجزاتهم- أو محاكاتها، مع التسليم بأن السبب أو الآلية التي أجرى الله بها المعجزة على يد النبي لا تتأتّى لغيره. فمعجزة شق البحر لموسى عليه السلام مثلاً، إنما كان أثرها ومؤداها تحقيق عبور البحر بأمان، وسببها ضرب العصا هو سببٌ لا يمكن مجاراته والإتيان به، لكن يمكن البحث عن أسبابٍ ماديةٍ تحقق عبور البحر، وهو ما حصل فعلاً، سواء بالعبور فوقه أو من تحته. والإسراء بالرسول ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وهو المعجزة الحسية الوحيدة المذكورة له صراحة في القرآن كان مؤداها قطع المسافة الطويلة بمدة وجيزة، والسبب الخاص بالنبي ﷺ، إنما هو ركوب البراق، وهو سبب لا يمكن الإتيان به مطلقاً، لكن يمكن البحث عن الأسباب المادية التي تحقق المؤدى ذاته، ولعله تحقق فعلاً بالعديد من الوسائل. والأمر كذلك في نقل عرش بلقيس، فقد كان أثر المعجزة أو مؤداها نقل العرش بسرعة عالية تقارب طرفة العين، ويمكن السبق إلى تقرير إمكان مثل ذلك بالاستناد إلى دلالة المعجزة على حدوثها بالفعل، إلى جانب البحث عن الأسباب المادية التي تحققه.

وعليه، فإن فهم المعجزات الحسية بصورة تتجاوز مجرد التسليم بها، يمكن أن يجعلها جزءاً من المنهجية القرآنية، يرتكز على مؤدياتها في الواقع، بحيث يمكن السبق العلمي بالقول بإمكانية وقوع مثل هذه المؤديات أو محاكاتها بناء على ما نؤمن به من المعجزات، والعمل على البحث عن أسبابها وتفعليها، وإذا كان حصولها للنبي بأسباب إلهية تكون خاصة به، فهي للإنسان بأسباب يمكّنه الله عز وجل من بلوغها بالبحث والاعتبار والانتهاج العلمي، للوصول إلى مثل ما حققته المعجزة في الواقع.

سلسلة مختصرات الكتب الصادرة عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي:

هي مجموعة قيّمة من أبرز منشورات المعهد، تم إعدادها بصيغة مختصرة لتقديم فهم جوهري لمضامين الأعمال الأصلية بطريقة مبسّطة ومركّزة، لتناسب القارئ العام والباحث المتخصص على حد سواء.

هذا الكتاب

هو تكاملٌ مع الجهود التي تُعنى بقضية المنهجية في مواجهة التحديات الفكرية والمعرفية، التي تواجه الأمة، كون المنهجية مرتكزاً رئيساً في تحقيق النهوض الحضاري المنشود. وقد عمل الكتاب على بيان أصول المنهجية العلمية في القرآن الكريم من خلال دراسة أهم المفاهيم القرآنية، التي ترتبط بمحاور ثلاثة، هي: التفكير المنهجي، والسلوك المنهجي، وقضية الدليل ومنهج الاستدلال.

وبيّن الكتاب ارتكاز المنهجية العلمية القرآنية في جانبها الفكري على خطاب العقل، والحث على إعماله في مختلف المجالات المعرفية، إلى جانب تفعيل الحواس في إطار مزدوج (حسي-عقلي). في حين ترتكز المنهجية القرآنية في جانبها السلوكي على الالتزام بمفاهيم أخلاقية عديدة أهمها القيام للحق وترك اتّباع الهوى، ثم إن القرآن الكريم يوظف كلًّا من المبادئ الفكرية والسلوكية في قضية بناء الدليل بوصفه أهم الأصول المنهجية، وفي التأسيس لمنهج استدلالي فريد، هو منهج الاعتبار القرآني.

وتناول الكتاب في سياق ذلك توضيح المراد من أهم المفاهيم المرتبطة بالمنهجية والتأصيل إضافة إلى تعرّضه لمسائل فكرية إسلامية مهمة كالوحي والمعجزات، وبيان مكانتها من المنهجية العلمية في القرآن الكريم.

رزان محمد صقال

باحثة سورية مواليد حلب عام ١٩٨٧. تخرجت في كلية الشريعة جامعة دمشق، وحاصلة على الماجستير في العلوم الإسلامية الأساسية من جامعة إسطنبول صباح الدين زعيم. يمثل هذا الكتاب أول إنتاج فكري للباحثة، التي تسعى للتخصص في قسم التفسير، موضوع المنهجية القرآنية والإسلامية.

البريد الإلكتروني: roz.sakkal@gmail.com.

ISBN 979-8-89193-241-8